عندك رشاشة أسامة بن لادن؟

حرب سرية على مستقبل الطفولة العراقية

عامر القيسي
تصوير / نهاد العزاوي

ثلاثة مسلحين برشاشتين ومسدس ينتظرون أية سيارة تدخل إلى الزقاق للسطو عليها. ينتظرونها بهدوء وترقب تدخل السيارة الزقاق. يباغتونها مع سائقها، في محاولة لتحقيق هدفهم. إلا أن المحاولة فشلت برغم إطلاق الرصاص على السيارة وصاحبها، الذي كانت شجاعته قد حالت دون وقوعه بين أيدي هذه العصابة المسلحة. هل هذه حادثة واقعية؟ الجواب: نعم. من قام بهذا العمل؟ الجواب بكل بساطة: ثلاثة أطفال بين العاشرة والثالثة عشرة من عمرهم، من أسلحتهم التي هي في حقيقتها مع لعب الأطفال الواسعة الانتشار هذه الأيام بمختلف الأنواع والأشكال!

بداية الانتشار

مثل هذا النوع من لعب الأطفال لم يكن معدوماً في السوق المحلية وما كان محظور الاستيراد، لكن حجم المعروض منه نسبة إلى بقية الألعاب كان متواضعاً. وربما لا يتذكر الكثير من جيلنا في عقدي الستينيات والسبعينيات لعب الأسلحة في طفولتهم، وهذا دليل على ضعف تأثيرها فينا وعدم رسوخها في ذاكراتنا. لكن السوق العراقية شهدت غزواً مثيراً للانتباه لهذه النوعية من الألعاب بعد مدة ليست بالطويلة من اندلاع الحرب العراقية الإيرانية وتزايد مظاهر عسكرة المجتمع، ابتداء من المرحلة الابتدائية وانتهاء بمرحلة ما كان يسمى "الجيش الشعبي" في زمن النظام المباد. وحالة انتشار لعب أسلحة الأطفال من وجهة نظر علم النفس تمثل انعكاساً طبيعياً للتشكل النفسي للطفل العراقي أمام طغيان المشهد العسكري على بقية المشاهد. ومن منا لا يتذكر، كيف دخلت المصارعة الحرة غير المقيدة إلى كل البيوت العراقية في أعوام السبعينيات، بعد أن سوق لها النظام السابق قصة "البطل" الوهمي، عدنان القيسي، ومسرحياته الحرة التي كانت تنقل من شاشات التلفزيون، ويعاد عرضها صباح مساء. والشواهد على هذا التأثير هي المستشفيات التي شهدت تصاعداً ملحوظاً في عدد الإصابات بين الأطفال بالكسور والرضوض وغيرها، ووصلت بعض الحالات إلى حد مفارقة الحياة!

في الشورجة بدأت الحكاية

لكي تجد تاجر جملة لاستيراد العاب أسلحة الأطفال، عليك أن تبحث عنه، فشارع الشورجة العام يفتقر إليه. وبعد أكثر من محاولة فاشلة دخلنا إلى سوق الشورجة من زقاقه المؤدي إلى السوق العربي. وبين زقاق وآخر، عليك أن تتلمس خطواتك بسبب الإضاءة الخافتة، وعليك أن تنزل أربع أو خمس درجات لتصل إلى قبو يتكون هو الآخر من أزقة ضيقة ومتقاطعة على شكل "متاهة" كما في صفحات التسالي. فالسلم الذي نزلت منه خرجت منه مرة أخرى في دورة غريبة بين هذه الأزقة، التي تقع على جانبيها محال بيع ألعاب الأطفال المختلفة. والملفت للنظر، إن هذه المحال ضيقة وصغيرة كأزقتها. محال بسعة ٢×٣م لكنها في حقيقتها تضخ السوق العراقية بكل لعب الأطفال إلى تجار وسطاء وهؤلاء بدورهم يبيعونها إلى محال بيع المفرد المنتشرة في أسواق بغداد والمحافظات.

هل هي موسمية؟

التقينا التاجر، عبد الأمير محمد في دكانه الضيق جالساً خلف منضدة صغيرة جداً. قال لنا: إن سوق ألعاب الأسلحة سوق موسمي، ينشط في أيام الأعياد والعطل ويخف هذا النشاط في الأيام العادية. لكن الأكيد، إن سنوات ما بعد منتصف الثمانينيات شهدت رواجاً كبيراً لهذا النوع من الألعاب. وفيما يخص مرحلة ما بعد ٤/٩، فإن القدرة الشرائية للمواطن العراقي قد تحسنت بشكل ملحوظ، مما أسهم في زيادة (السحوبات) على مختلف أنواع ألعاب الأطفال ومنها ألعاب الأسلحة. وأضاف إن المنشأ الرئيس لاستيراداتنا هو الصين لأن بضاعتها رخيصة لكنها سريعة العطب أيضاً لأسباب تجارية. والشركات الصينية هذه تكتب دائماً باللغة الانكليزية على ألعاب الأسلحة العمر المحدد لكل لعبة، فهذا المسدس لما بعد الثالثة من العمر وهذه الرشاشة لما بعد العاشرة، وهكذا. السيد عبد الأمير يرى أن مثل هذه الألعاب غير مفيدة للطفل ولا تفتح أمامه أفقاً للتفكير، وتؤدي في غالب الأحيان إلى بعض الإصابات وخصوصاً في العين. (وقد استخدمنا مسدساً يطلق بقوة بلورات بلاستيكية دائرية، كان اندفاعها قوياً ولو أطلقت هذه البلورة باتجاه العين أو داخل الإذن فإنها بكل تأكيد ستحدث ضرراً كبيراً). وحين سألناه، إن كان يأخذ مثل هذه النوعية من الألعاب إلى أطفاله، أجابنا النفي، لكنه أكد، إن أولاده يشترونها من محال أخرى من مصروفهم اليومي! ولا تمنعهم؟ قلنا له. فأجاب، بأنه من الصعوبة، الوقوف أمام جميع رغبات الأطفال ونوع تسليتهم. وعن أسعار مثل هذا النوع من الألعاب، قال: إن البضاعة التي عندي من هذا النوع، يتراوح سعرها بين ٢٥٠ ديناراً و١٥٠٠ دينار. لكن هناك ألعاب أسلحة، أسعارها تصل إلى خمسة آلاف ديناراً. وأكثر وحسب نوع اللعبة وتعقيدها.

أسلحة مخصصة للعراق!

نقرأ على أكثر بضائع وزارة التجارة عبارة "استورد خصيصاً لوزارة التجارة" و"العراق". لكن بعض أسلحة الأطفال لم تكن تستوردها الدولة سابقاً ولا حالياً، لكنها تكون مخصصة من المنشأ إلى العراق! وبعض منها مرفقة مع خريطة العراق، والبعض الآخر ترويج للبندقية التي يحملها أسامة بن لادن. ليس في الأمر أية مبالغة.

ثلاث حروب في ربع قرن تخلق ذاكرة جمعية مملوءة بمفاهيم العنف وتدهور قيمة الحياة توترات الطفل وعدوانيته وإحباطاته نتاج صدمة الحرب

حيث يؤكد ذلك تاجرا المفرد، الأخوان محمد وأحمد عبد الكريم، صاحبا (معرض البطة لألعاب الأطفال) في منطقة بغداد الجديدة. يقولان: تحديداً بعد عام ١٩٩١، غزت السوق العراقية أنواع من الأسلحة، ذات الشكل والمضمون الأمريكي، حيث تجد في أسواقنا لعبة تتكون من عدة قطع من السلاح وباللون العسكري مع خريطة واضحة للعراق والأماكن التي اخترقت منها القوات الأمريكية الحدود العراقية. وكان هذا في زمن صدام، ولا ندري إن كانت بمعرفة السلطة أم لا أو بغض النظر عنها. وبعد ٢٠٠٣/٤/٩، دخلت كميات هائلة من لعب الأسلحة، على شكل سيارات "همر" الأمريكية، والأسلحة التي يحملها الجندي الأمريكي، وحتى نوع وشكل الهاتف النقال. وقد راجت رواجاً واسعاً بين الأطفال، بالرغم من أن سعر سيارة الـ"همر" خمسة آلاف دينار! وقد نفدت بسرعة ودخلت كميات أخرى غيرها. وما زالت دبابة من نوع (Benzr) بينزر، مطبوعة على غلافها عبارة (عاصفة الصحراء) تلاقي أيضاً رواجاً كبيراً. يقول محمد: اعتقد إن هذا الموضوع بالنسبة للشركات الصينية، قضية تجارية. ولماذا الصين بالذات؟ قلنا له، أجاب: لأن البضاعة الصينية رخيصة لأسباب عديدة، وإن هذه الألعاب لو تم تصنيعها في دول أوروبية لكان سعرها عالياً جداً، وبالتالي سيكون رواجها قليلاً.

رشاشة ابن لادن!

وأضاف: سلاح آخر واسع الانتشار، إنه بندقية أسامة بن لادن، المسماة "تبوك". والأطفال يشترونها ويسمونها بالاسم "عندك رشاشة أسامة بن لادن"؟ وهناك نوع من المسدسات يطلق رصاصه صوتاً قوياً، وهذا النوع رائج أيضاً. ويؤكد الأخوان، إن لعباً لأسلحة جديدة تدخل باستمرار إلى سوق الشورجة. وعن جنس ونوعية الأطفال الذين يشترون مثل هذه الألعاب، قال أحمد: الذكور أكثر إقبالاً على مثل هذه الألعاب، وهم من شرائح اجتماعية مختلفة، ينحدرون من عوائل غنية وفقيرة ومتوسطة، وبحسب سعر كل لعبة ونسبة الإناث لا تذكر بهذا الشأن. وعن شرائه هو لأطفاله مثل هذه الأنواع من اللعب، قال بأنه شخصياً لا يشتري لعبة السلاح لولده، أما محمد فقال: إنه لا يعاني من هذه المشكلة، لأنه ابنته لا تحبذ مثل هذه الألعاب. وادليا بملاحظة مهمة، هي أن سوق هذه الألعاب ينشط في حالتين. الأولى، عندما تكون هناك أحداث ساخنة، قصف أو اشتباكات وما إلى ذلك. والثانية في مواسم الأعياد. وقبل مغادرة محل البطة، دخلت امرأة مع طفلها الذي قالت إن عمره ثلاثة عشر عاماً، وقد اراد شراء رشاشة من النوع الذي يحمله الجندي الأمريكي. وتم الشراء بسرعة، حيث إنه جاء يبحث عنها تحديداً، وعندما سألته عن سبب اختياره لهذه الرشاشة، قال لي الطفل مرتضى الناصري، بأنه يحبها وأقرانه لديهم مثلها، أما والدته، التي كانت مستسلمة تماماً لرغبته، فقد قالت كيف لا يحبون السلاح، إذا كنا نخرج من حرب وندخل في غيرها؟ (الله يصخم وجهه لصدام حسين!!).

متابعة واقعية

عندما سافرت نهاية ٢٠٠٣ لعلاج ولدي ذي الأربع سنوات، إلى دولة الإمارات، بعد أن تعذر هذا العلاج في بغداد، زارنا في المستشفى الكثير من الأصدقاء والمعارف وبعض مندوبي الهيئات الإنسانية، وكانت زياراتهم مرفقة طبعاً بهدية للطفل، وبرغم كثرة الهدايا، إلا انني لم ألحظ أية واحدة منها ذات طابع عسكري، بل كانت جميعها الكترونية تحفز الطفل على التفكير والاستنتاج.

وفي أكثر من اتصال هاتفي مع أصدقاء في بعض الدول العربية المجاورة سألتهم، إن كانت بندقية بن لادن "الطفولية" موجودة في أسواق بلدانهم، نفوا ذلك بشكل قاطع، والملاحظة التي أريد أن أذكرها هنا، هي إنني عندما كنت في سوريا عام ١٩٨٢، راجت هناك في سوق لعب الأطفال، طائرات عسكرية أمريكية مختومة عليها علامات (F-16,F15) وكان هذا النوع من الطائرات الحقيقية، قد دمر وحدات كاملة للجيش السوري على أيدي طيارين إسرائيليين في بيروت والبقاع أبان الغزو الإسرائيلي المشهور للبنان في نفس العام!! فهل ما حدث هناك ويحدث هنا، محض مصادفة. المنطق يقول. كلا.

الفيلسوف الصغير

أردنا الوقوف على تفسيرات هذه الظاهرة، وتأثيراتها السيكولوجية، على حاضر ومستقبل الطفل العراقي، فالتقينا بالأستاذ "فارس كمال نظمي" اختصاص علم نفس الشخصية بجامعة بغداد. وسألناه:

❖كيف يفسر علم النفس بمنظوريه الاجتماعي والتربوي، ظاهرة تفشي العاب الأسلحة بين الأطفال العراقيين في الآونة الأخيرة؟

- "الطفل فيلسوف صغير" في المراحل المبكرة من تطوره العقلي والأخلاقي، وقدرته على التفاعل مع معطيات الواقع، لا تقل في نوعها وكمها عن البالغ. فعندما يخوض جيلان متعاقبان من الآباء والأمهات. ثلاث حروب على مدى ربع قرن، وعندما تمتلئ الذاكرة الجمعية بمفاهيم العنف وتدهور قيمة الحياة، وعندما تجوب المدن بأسلوب استعراضي عربات عسكرية تقودها مخلوقات ميكانيكية الحركة، مدججة بأسلحة متنوعة، وعندما تحجب السماء على مدار الساعة المروحيات الهادرة وأعمدة الدخان وصدى الانفجارات الغامضة، عندها لا يكون أمام الطفل العراقي وهو في أدق مراحل نموه الوجداني والأخلاقي إلا أن يتمسك بواحدة من ثلاث ستراتيجيات نفسية تحفظ له "تكيفه مع عالم مشبع بثقافة السلاح".

أولاً: أن يتوحد لا شعورياً بالعنف الشامل المحيط به، فيدجج نفسه بالأسلحة، وينهمك في ألعاب حربية يبتكرها مع نفسه أو مع الآخرين، وهذا يحقق "خفضاً" في قلقه من رعب الخارج، بان يصبح جزءاً منه وخاضعاً لقوانينه، وهذا ما نطلق عليه "التوحد بالمعتدي".

ثانياً: أو يتجه لمحاكاة أنموذج "رامبو" الذي اشاعته وروجته له الأفلام والألعاب الالكترونية ووسائل الإعلام بوصفه مثالاً للجرأة والوسامة والحكمة، فضلاً عن التأثير المباشر لوجود الجندي الأمريكي في الشارع العراقي بهيأته الرامبوية وعملية المحاكاة هذه توفر للطفل شعوراً مطلوباً بالأهمية والزهو والتحكم بالأشياء ويسد بها المساحات النفسية التي لا تزال شاغرة في شخصيته، ولاسيما في ظل التغييب شبه التام لنماذج إنسانوية الطابع في البيئة العراقية وهذا ما نطلق عليه "النمذجة".

ثالثاً: أو أن يسعى إلى توزيع توتراته وقلقه وعدوانيته الناجمة عن "صدمة الحرب" وعن إحباط حاجاته الطبيعية للعيش في بيئة آمنة، تحقق نمواً سوياً لانفعالاته، الأمر الذي يؤدي إلى تحويل طاقة هذه الحاجات لديه من مساراتها الطبيعية إلى مسارات عدوانية بديلة مصطنعة، وما دام السلاح هو الرمز الأكثر انتشاراً في الواقع وجد الطفل العراقي نفسه يتجه إلى هذا الرمز، وهذا ما نطلق عليه "الإحباط - العدوان".

ما الحل؟

❖ويبقى السؤال الملح: ما علاج هذه الظاهرة المقلقة؟ وهل ثمة إجراءات تربوية أو أجتماعية يمكن اقتراحها للتخفيف منها مرحلياً وصولاً إلى إزالتها مستقبلا؟

- إن علاجها لابد من أن يتزامن مع إصلاح شامل لجميع بنى المجتمع العراقي، الفوقية منها والتحتية، ومع ذلك لابد من بعض الإجراءات التربوية ضمن الأسرة التي تحد من تفشي هذه الظاهرة ومنها إن على الآباء والأمهات أن يبدأوا بتقديم شروح مبسطة وصادقة لأطفالهم عن سلبيات هذه الألعاب، وإن لا يتعبوا أو يملوا من تكرار هذه الشروح وتقريبها لذهن الطفل، وأن تتزامن هذه العملية مع امتناع الآباء عن شراء هذه الألعاب على نحو تدريجي وأن يكون ذلك مقترناً بتوفير خيارات أخرى لهم تسهم في تصريف طاقاتهم وإنفعالاتهم، ويرافق هذا أيضاً تنسيق للجهود بين الأفراد الكبار في الأسرة لإشاعة ثقافة أسرية تدعو للسلام والمحبة والوئام واللا عنف.

أطفال يتحدثون

سلام أحمد: عمره عشر سنوات قال: لقد كان والدي عسكرياً، وكنت ألاحظ اهتمامه بالسلاح وكيفية صيانته.. وكان يمنعني من لمسه، فنشأت عندي رغبة عميقة لاستخدامه حتى لو لم يكن واقعياً.

أما أنمار جرجيس: عمره ثلاثة عشر عاماً فقال: التلفزيون هو سبب تعلقي بهذه اللعب. وعندما دخلت غرفته وجدت عشر قطع من لعب الأسلحة بين مسدس ورشاشة ودبابة وأسلحة جارحة.

مجيد عامر: عمره أربع سنوات. سألته عن طريق المزاح:لماذا تحب اللعب بالمسدس؟ وكان بيده مسدس" فأجاب، بكل براءة: "نلعب به عصابة".

هذه هي مغذيات هذا التوجه من فم أصحاب الشأن مباشرة، الواقع والإعلام. أما أولياء الأمور، فإن معظمهم يتصرفون بلا مبالاة واضحة إزاء هذه الظاهرة، فقد التقيت بأكثر من أب وأم فوجدتهم مستسلمين بشكل عام لتوجه أطفالهم. بدلاً من أن يحدث العكس.

أبو أحمد مهندس، يقول: عندما آخذ ولدي إلى السوق يجبرني على شراء قطعة سلاح له. وعندما لا آخذه معي، يطلب مني ذلك بشدة. لأنها ألعاب محببة لديه.

سعدية محمد (مدرسة لغة عربية) بالرغم من إنها في مجال عمل تربوي، إلا إنها مستسلمة لطلبات ولدها "سالم" تسع سنوات، المغرم بهذه الألعاب، لكن المثير، إنه يحطمها بعد عدة أيام.

وحاولت أن ابدل نوعية ألعابه، إلا أنني كنت أواجه دائماً بتحد غريب، من خلال البكاء وحتى الإضراب عن الطعام. وفي النهاية كنت استجيب لرغباته!

الطفل سريع التأثر

السيد سلمان عبد الواحد، وهو طالب دكتوراه في علم النفس التربوي، بجامعة بغداد، يرى ان الطفل يعد مستهلكاً لما ينتجه الكبار من ألعاب، وينسحب هذا الكلام وبشكل دقيق على اللعب الفردي قليل الحركة، بينما تكون الحرية مضاعفة في الألعاب الجماعية، واللعب بالدمى ذات الهيئة العسكرية ينتمي إلى النوع الأول، بمعنى أن الطفل العراقي يطلب بشكل واضح وصريح أن تكون لعبته بندقية أو مسدساً، بعد أن ملأنا أسواقنا بها. وسر انتشار هذا النوع من الألعاب بتقديري يتبع عاملين مهمين.

الأول: التقليد والمحاكاة. فالطفل سريع التاثر بما يرى ويحاول أن يقتنيه، تدفعه إلى ذلك أنانية مفرطة.

الثاني: إن اهتمامات الطفل هي جزء من المشهد العام للحالة الاجتماعية بل يكون امتداداً لها. وبما أن المشهد القتالي والعسكري هو المشهد المهيمن على سائر الأنشطة اليومية، فضلاً عن تفاعل وسائل الإعلام مع مشاهد الحرب والدماء والاقتتال بإسراف، لذا لا غرابة في تفضيل الطفل لألعاب الأسلحة. وعزل الأطفال عن هذا المشهد العام مستحيلة، ما دام هذا المشهد مهيمنا على حياتنا ومؤسساتنا، لكننا نستطيع التخفيف من الآثار السلبية لهذه الهيمنة، وذلك بعدم الانجرار وراء رغبات الأطفال بهذا الخصوص ومنع استيراد هذه الألعاب قدر الإمكان وإني أسأل: ألا يكفينا ما موجود من أسلحة الكبار؟!

مشكلة مشرعة الأبواب

بعد قراءة جيدة للأفكار التي نقلناها عن مختلف أطراف المشكلة بتنوع مواقعهم وأفكارهم، نستنتج بأننا أمام مشكلة نتائجها بعيدة المدى، في الوقت الذي تبدو فيه إنها غير منظورة، وهذا أخطر باب من أبواب المشكلة، وهي تشبه قصة الرجل الذي لم يشعر بالنار إلا وهي داخل غرفة نومه، في الوقت الذي كانت فيه هذه النار تنمو وتترعرع في الغرف السفلية للمنزل. فهل ننتظر حتى تأتي تلك اللحظة؟

نحن جميعاً أمام هذه المشكلة، وجميعاً سنضطر لبذل الجهود المضاعفة للسيطرة أو الحد من تأثيراتها. نعرف جيداً إن التاجر لن يتوقف عن الاستيراد، والحكومة لا تستطيع منع ذلك، وأولياء الأمور سيواصلون سياسة المهادنة مع أولادهم وسيبقى الإعلام مفتوحاً على المشهد العسكري العراقي إلى زمن طويل.

هذه هي الرياح التي تدخل إلى بيت أبوابه مفتوحة على مصاريعها لتترعرع هذه المشكلة الخطرة.

فماذا نحن فاعلون؟

◆ تنتجها الصين.. ويستوردها العراق.. وضحيتها الأطفال!

◆ الأطفال يتهمون التلفزيون والآباء والحرامية

◆ علماء نفس: الفيلسوف الصغير قادر على التفاعل مع معطيات الواقع